حفريات في الخطاب الخلدوني

● إذا اعتبرنا النص الخلدوني مركز ثقل معنوي فريد في الخطاب العربي المعاصر، نظراً إلى موقعه المتميز من الجدل الدائر حول التراث والحداثة، فهو من النصوص القليلة التي نجحت في الانفلات من تاريخيتها والالتحاق بهذه الأطروحة المعاصرة

نعثر في كتاب» حفريات في الخطاب الخلدوني « للمؤلفة ناجية الوريمي بوعجيلة ،على محاولة للبحث عن جذور الفكر السلفي السائد حالياً، والذي عادة ما يقترن أساساً بمنظره الرئيسي ابن تيمية، ويحضر ابن خلدون في هذا الكتاب بشكل مختلف، بل ربما نقيض لابن خلدون الذي درجت الدراسات على تعريفه وتبيان مكانته العلمية، حيث اعتبره بعض الباحثين مؤسّس علم الاجتماع أو العمران.

لكنّ المؤلف ناجية الوريمّي، لم تسلم بهذا الأمر، وترى أنّ أغلب الدراسات والأبحاث الخلدونيّة التي قام بها مفكرون وباحثون عرب هي دراسات قاصرة، بسبب استنادها إلى موقف إيديولوجي، استند إلى الانتقائية التي تخدم فكرة الطليعية العلمية عند ابن خلدون، المفكر العربي المسلم.

وعليه لجأت إلى إعادة النظر في كل ما قاله هذا المفكر في مقدمته وفي تاريخه وفي غيرهما، محلّلةً خطابه على ضوء الظرف التاريخي والاجتماعي والسياسي في عصره، وعلى ضوء كل ما كتبه سابقوه من المفكرين والفلاسفة المسلمين، وما طرحته التيارات الكلامية والسياسية السابقة له.

ولا تقلل ناجية الوريمّي من مكانة ابن خلدون، ولكنها تراه كسواه يجوز نقده، بل، وبالنظر إلى موقعه، يجدر أن يكون هذا النقد عبر الحفر المعرفيّ في خطابه وفي نظرياته، ليس بقصد المخالفة والتفرّد، بل بهدف البحث عن الحقيقة المعرفية، والتحرر من كل سلطوية ولو كانت هي سلطة ابن خلدون.

وتعتبر أن فرادته قائمة، على استيعاب شامل لخصائص المنظومة الأشعرية بكل ما تقتضيه من إقصاء لما يعكر صفو المثل الأعلى السائد في عصره من الإيمان المطمئن بالثوابت المنتصرة تاريخياً، ومن السلوك الاتباعي المكرس للنظام القائم، بما فيه من استبداد وتمييز وتراتبية اجتماعية.

وقد وجد عناصر هذه المنظومة مبثوثة هنا وهناك، في النظيرات الكلامية، وفي المدونات الأصولية والفقهية، وفي أعمال المؤرخين والعلماء في مختلف الاختصاصات، وكانت له قدرة فائقة على الإلمام بأهمّ ما فيها، فشيّد من هذه العناصر بناءً شامخاً ولكنه منغلق على نفسه، وانتقى من المادة المتاحة ما يخدم غرضه في إضفاء مشروعية ومعقولية على المكونات الرئيسية للعقل المستقيل.

ولم يستطع أن يبلغ هذه النتيجة بدون تعتيم مقصود على الخلافات السياسية، وتغييب لكل نشاز يُخلّ بتناسق النظرة السنية، على نحو سكوته الصارخ عن أحداث المحنة أيام المأمون، ومسؤولية الأطراف المشاركة فيها، وعن دور هذا الخليفة في ترجمة الفلسفة اليونانية والتشجيع على تبيئتها في الحقل الإسلامي.

كما أنه لم يكن بمقدوره أن يكرّس ثقافة الإقصاء بدون السعي إلى تثبيت الحقيقة التي يدافع عنها بواسطة خطاب سلطوي يعتمد التجريد والتعتيم في الرد على المخالفين، ويقنن الظواهر المدروسة بالآليات الفقهية.

وتنهض عبقرية ابن خلدون على ظاهرة شبه قارة في الفكر العربي الحديث لم تنفك تثير فيه الالتباس وتنشر سوء التفاهم، وهي البحث التبريري عن أصالة منشودة لحركة النهضة العربية التي بدأت في القرن التاسع عشر، ولمقتضيات التحديث الضاغطة في الوقت نفسه.

إلا أن ما يجمع القائمين بهذا البحث المحموم عن أصالة النهضة والتحديث هو الغفلة المأسوية عن مقومات التحديث بمواصفاتها الكونية. وتتوقف المؤلفة عند ثلاثة من هذه المقومات الأساسية، وهي أولوية العقل غير المقيد على النقل أيا كانت طبيعته، وعدم قبول سلطة الماضي على الحاضر، ورفض أن يحتكر هذا الماضي دور الأنموذج، وتقويض أسس الاستبداد بمرجعيته المفارقة.

وحاولت تبيان أن ابن خلدون يعارض محتوى هذه المقومات على طول الخط، جملة وتفصيلا، في مقدمته كما في تاريخه. وكان في كل ما كتب منطقياً مع نفسه، فكانت مخاتلته لقرائه مما فرضته عليه نوعية اختياراته أكثر مما كان القصد منها التضليل أو التقيّة.

وإذا اعتبرنا النص الخلدوني مركز ثقل معنوي فريد في الخطاب العربي المعاصر، نظراً إلى موقعه المتميز من الجدل الدائر حول التراث والحداثة. فهو من النصوص القليلة التي نجحت ي الانفلات من تاريخيتها والالتحاق بهذه الأطروحة المعاصرة أو تلك، لتؤدي فيها وظيفة المبرر التراثي الأصيل الذي يسمح لها بادعاء مشروعية تاريخية.

لقد أُخضع النص الخلدوني لقراءات عديدة، وفُهم بالانطلاق من مرجعيات إيديولوجية مختلفة، مما حجب- أو كاد- حقوله الدلالية الخاصة ونوعية انتظامه في صراع الاختيارات المعرفية المتباينة التي شهدها الفكر الإسلامي في القديم.

ونُسبت إليه في المقابل معان تقربه من تخوم الحداثة العربية وشروطها الإشكالية ذات الثنائيات المتناظرة، وهي معان أنتجتها قراءات حداثوية، صادرة عن وعي عربي إسلامي متأزم أربكته الحداثة الوافدة، راح يبحث عن نص تراثي يحتمي به من هذا الوافد ومن خطر هيمنته، مقدماً بذلك مؤشراً جديداً من مؤشرات تأزمه، وهو التوظيف الإيديولوجي للتراث.

ومن خلال دراستها لخطاب ابن خلدون العمراني والتاريخي تحول تبيان حقيقة انتظامه في نسق معرفي نصي، وصدور أهم إضافاته العمرانية عن عقل فقهي ارتقى معه إلى درجة صياغة التصورات العامة والشاملة. وكانت الغاية التي تحرّكه هي ائتلاف الجميع في نفس التوجّه، في ظل القضاء على النشاز غير المرغوب فيه والخطر أحياناً.

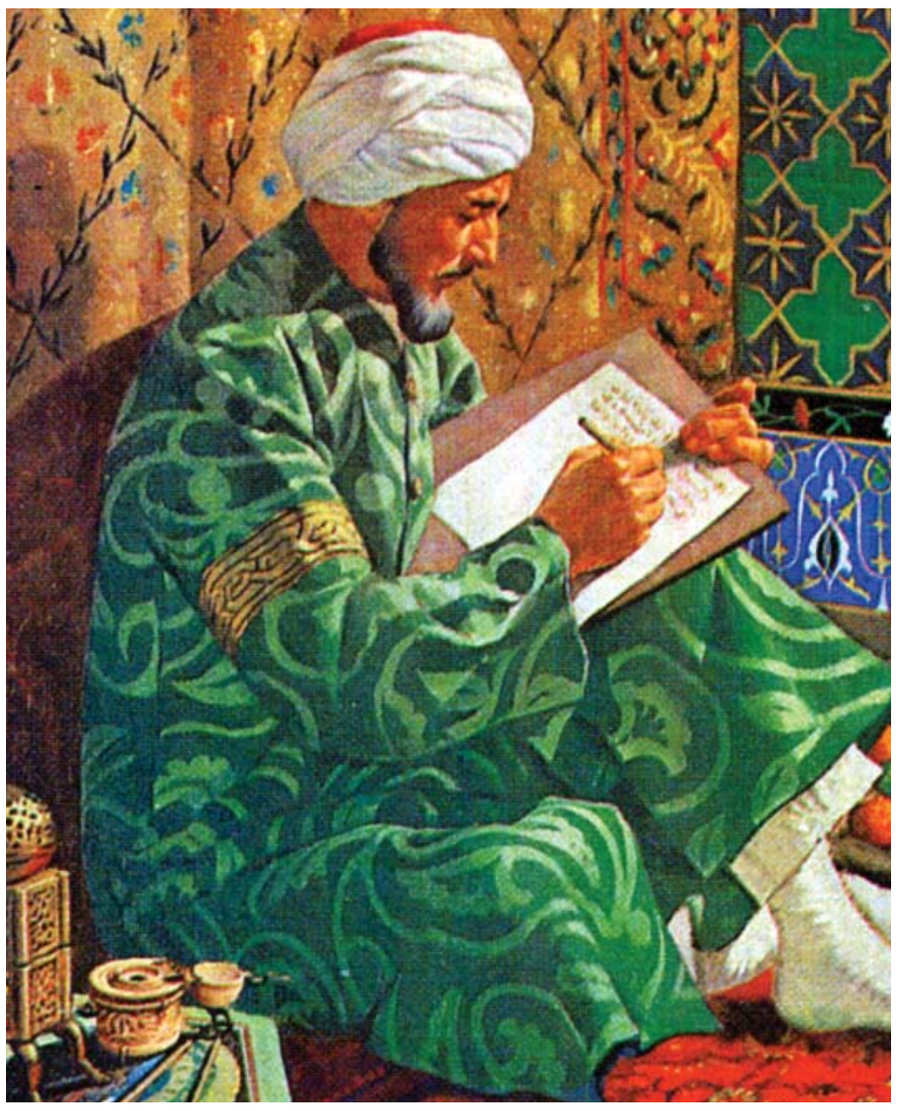

وتشير إلى أن المسلمات التي كرسها العقل الفقهي، وترجمت عنها خطابات مختلفة، من بينها الخطاب الخلدوني، قُدمت على أنها ذات سلطة مرجعية نصية متعالية، وحُجبت فيها أصداء الاختيارات التاريخية البشرية المبررة بعوامل سلطوية. وقد تكلس فيها السلطوي وظل حاضراً في واجهتها المقدس والمتعالي ومن هنا اكتسبت قدرتها على التأثير في الواقع وتوجيهه. ومن المعلوم أن فاعلية فكرة ما لا تعود إلى كونها حقيقية، بل إلى اعتبارها كذلك.

وتسعى المؤلفة من خلال دراستها لابن خلدون إلى الكشف عن نوعية المعرفة التي ينتجها وعن آلياته الفكرية التي يوظفها من خلال خطابه منظوراً إليه في سياقيه النصي والتاريخي.

وتعتبر أن العمل المؤسس لعلم العمران والمنظم لعملية التأريخ يأتي مصادراً للعقل في بعده المعرفي الخلاق، ومغرقاً في إعادة إنتاج الثوابت المميزة للفكر السنيّ المنتصر تاريخيّاً. وذلك بغاية محاربة الاختلاف الماضي والمعاصر له، عبر التوظيف الخطير لمنطق القانون.

وقد حرص ابن خلدون على تحديد القوانين التي بدت له محركة للمجتمع في التاريخ. ووعى بحكم تفكيره الأشعري أن الردّ على المؤرخين المخالفين له، في السابق وفي الحاضر، بمجرد رميهم بالخطل وانعدام الصواب في أعمالهم لن يكون ذا جدوى مرجوة، وسيكون عمله ضمن الأعمال التاريخية الموجودة مجرد إمكان مناظر لسائر الإمكانات المذهبية التي يحق لكل منها أن يحتكم إلى ما يسوغه داخل الدائرة الثقافية التي يمثلها.

واختار في المقابل أن يكون رده عليها بمنطق آخر يعطل لدى المخالف آليته الحجاجية المذهبية الخاصة، وهو منطق التجريد والتعميم، أي القانون التاريخي الذي يقتضي من الجميع التسليم به وبحقائقه. وتعتبر المؤلفة أن هذا يجسد المنطق الأشعري الموظف للعقل في اتجاه محدد غايته خدمة الثوابت النصية، حيث المعطيات والحقائق التي يحتج لها هي وليدة رؤية نصية سلفية، وآليات الحجاج عقلية بمفهوم محدد للعقل- هو المفهوم الأشعري- حيث ينتهي الاستدلال دائماً بتزكية هذه الحقائق بالذات.

المؤلفة في سطور

الدكتورة ناجية الوريمي بوعجيلة هي باحثة وأكاديمية تونسية، نالت شهادة الدكتوراه عن أطروحتها المؤتلف والمختلف في الفكر الإسلامي القديم من جامعة منوبة بتونس. وهي كاتبة في الشأن الثقافي والتاريخي. وصدرت لها عدة مؤلفات، منها: الفلسفة والعلم: من كانط ونيوتن إلى الوضعية وحدود المعرفة الإنسانية، ٢٠٠٤ وفي الائتلاف والاختلاف ثنائية السائد والمهمش في الفكر الإسلامي ، ٢٠٠٥ .

احتراقات

عبدالمجيد التركي

● الشعر متوهجٌ كنار المجوس لأنه لا بد أن يبقى كذلك..

– لكنه يخبو ويضِنُّ كثيراً على مريديه!!

● هو أنانيٌّ جداً .. من تجاهله فإنه يضِنُّ كثيراً بظهوره لأنه يريد تواصلاً مستمراً.. نهجره فيجافينا ونعود إليه فيتدلل علينا كثيراً

– أظنه كذلك بالفعل فهو يريد من يدلِّله ويحايله.. هل يجب أن نقدم له طقوسا ليرضى!!

● هو أشبه بفرض.. والفروض لا بد أن يكون لها طقوس .. وربما قرابين ..

– لا أظن أن هناك أكثر من أوجاع أرواحنا نقدمها له قرباناً.

● لكنها أوجاع لذيذة تجعلنا نشعر ببشريتنا .. وتجعلنا نشعر أننا مختلفون

– صدقت ولكننا ننزفنا معها على الورق.

● لا بد أن ننزفنا على الحياة قبل أن ننزفنا على الورق.. لأننا نتألم نيابة عن الآخرين.

– ترى هل يشعر بنزيفنا الورق ؟

● لو شَعَرَ لاحترق..

– لا يحتمل شعور القلوب والأرواح.. منتهى معرفته وإدراكه مداد أقلامنا..

● القلوب تنبض حتى خارج أقفاصها حين تتجسد حروفاً خالدة..

– حروفنا قلوبنا ..

● هل رأيتِ الحروف وهي تنساب من فم الشاعر كالجدول الرقراق في الليلة العمياء؟ ورأيتها كجمر في أنامله في ليل شتاء حزين..

● وهل رأيت آهة الثكلى وهي تتكوَّم بين جوانحها مثلما تتكوَّم الغلال؟

– يااا للشاعر وما يحمل بين جنبيه!!

● وهل رأيت النار وهي تتنكر في عود الثقاب.. وهل استمعت إلى القمر وهو يتباهى بانتصاره على الليل بعد أن غلبه وهو هلال صغير؟

– ما أجمل الدنيا بما تسكبون من ضوء.

إصدارات ثقافية

الطفرات العلمية الزائفة

● يحذر الكاتبان تشارلز إم وين وآرثر دابليو ويجنز فى كتابهما «الطفرات العلمية الزائفة» الصادر ترجمته حديثاً عن دار كلمات عربيةبالقاهرة من تغلب ظواهر علمية زائفة مثل التنجيم والأشباح والاحتراق البشرى التلقائي وغيرها من الظواهر على العلوم الحقيقية الجديرة بالانتباه.

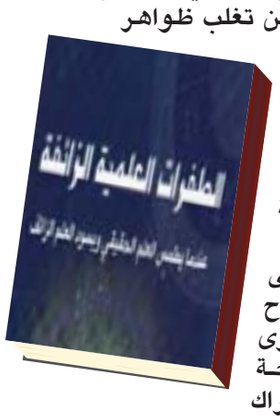

يشير الكاتبان إلى أن التنجيم والأشباح والاحتراق البشرى التلقائي والجراحة النفسية والإدراك الحسي الفائق وغيرها من الظواهر المتداولة يومياً على التليفزيون وفى الصحف، ليست سوى مزاعم خاطئة، ويشير المؤلفان فى مقدمة الكتاب إلى قصة انتحار ٣٩ شخصاً فى مسكنهم بمنطقة فاخرة فى ولاية كاليفورنيا الأمريكية بعد أن ابتلعوا جرعات من المهدئات المخلوطة بعصير التفاح، وأتبعوها برشفة من الفودكا، ثم وضعوا على رؤوسهم أكياسا بلاستيكية، للتعجيل بالوفاة، ويلفت المؤلفان إلى أن هؤلاء الأشخاص كانوا مقتنعين أن قتلهم أنفسهم بهذه الطريقة سيجعلهم ينتقلون فى خفة مع القادمين من كواكب أخرى إلى سفينتهم الفضائية، وهو الاعتقاد المبنى على علم زائف.

ويشير المؤلفان أن هذه الاعتقادات المضللة، تصل إلى الناس عبر بعض الأشخاص الذين يروجون لها، مثل الشخص الذي يورده المؤلفان فى الكتاب واسمه «مارشال هيرف أبلوايت»، وهو الذي أقنع مجموعة الـ٣٩ بوجود سفينة فضاء عملاقة تتبع مذنباً كونياً سمه هالى بوب وسوف تأخذهم هذه السفينة إلى مستقرهم الأخير في الجنة الحقيقية.

ويبحث الكتاب في أهم خمس أفكار قائمة على العلم الزائف إلى جانب العشرات غيرها، ويبدأ المؤلفان أولى فصول الكتاب الذي يحوى ٩ فصول، بمقولة عن العلم تقول أن الطريق إلى الحقيقة هي إتباع المنهج العلمي، وأن العلم يعتمد على الحقائق مثلما تعتمد المنازل على الأحجار.

ويناقش المؤلفان في الكتاب أفكار علمية غير مؤكدة بنظريات، وأخرى مثبتة بهذه النظريات، ومن ذلك الأجسام الطائرة المجهولة وفرضية الحياة خارج الأرض، وفرضية التنجيم، وفرضية الخلق، والإدراك الحسي الطبيعي والإدراك الحسي الفائق، وتجارب الخروج من الجسد والكيانات الخفية.

جادامر .. مفهوم الوعي الجمالي في الهرمنيوطيقا الفلسفية

● يرى ماهر عبد المحسن حسن في كتابه «جادامر: مفهوم الوعي الجمالي في الهرمنيوطيقا الفلسفية» بأن الهرمنيوطيقا تمثل الآن واحداً من التيارات الأساسية السائدة في الفلسفة المعاصرة، وتشكل في صورته المعاصرة داخل الفلسفة الألمانية بدءاً من الفيلسوفين شليرماخر ودلتاي ومروراً بالفيلسوف هيدغر وصولاً إلى الفيلسوف هانس جورج جادامر.

ويعتبر المؤلف أن التيار الفينولوجي لدى هوسرل وأتباعه من أهم المصادر التي أثرت بعمق في فلسفة جادامر، ولكن الفيلسوف هيدغر كان له التأثير الأعظم على فلسفته، بحيث يمكن القول بأن فلسفته قد اتسمت بطابع فينومنيولوجي على طريقة هيدجر.

ويظهر جادامر في الهرمنيوطيقا المعاصرة كأبرز فيلسوف جسّد من خلال دراساته فلسفة تأويلية تجمع بين مشروع هوسرل في الفنومنولوجيا ومشروع التأويل الأنطولوجي الذي افتتحه هيدغر.

وعمل على تأسيس صرح هرمنيوطيقا كونية، يحقق فيها الإنسان كينونته عبر صيغة الفهم والتفاهم وأدبيات الحوار، بوصفها الغاية التي تجري إليها هذه الهرمينوطيقا، إذ إنّ بلورة نموذج الفهم، عبر وسيط اللغة، هو شيء يكونه الإنسان لا أن يدّعي فعله حقيقة، ليكون التأويل بذلك، على الدوام، سؤالاً، وجدلاً بين الماضي والحاضر، وتفاعلاً دينامياً بين الإنسان المؤول وتراثه، وذلك من خلال انصهار آفاق كل منهما داخل أفق جديد في مقام تأويلي مخصوص في الزمن الراهن، وهو بذلك، يعدّ ردّة على النزعة الموضوعية الداعية إلى فهم صحيح يحيط بالنصوص فهماً.

وحاول جادامر تطبيق التأويل على العلوم الإنسانية واللغويات، انطلاقاً من فهم يعتبره أصل المناهج جميعاً، وأراد أن يثبت كلية التأويل، من خلال إعادة تحليل المنهجيات الجمالية في الفن، ثم في العلوم الإنسانية التي يسميها علوم الفكر، ثم في اللغويات والفعاليات اللغوية.

فالعمل الفني لا ينظر إليه بوصفه شكلاً نقياً خاضعاً لأحكام التذوق، إنما يدعونا إلى «مضمون الحقيقة» بوصفه تجربة لا تختزل بمقاصد المؤلف، حيث لم يبقى فيه شيء من قصد المؤلف وفهمه، فيما بقي الشكل الفني أو النص الأدبي، الذي فيه تقبع حقيقة كامنة تقبل التغير والتعدد. ومع أن عملية الفهم هي عملية مشاركة وجودية- استناداً إلى هيدغر . تقوم على الحوار بين المتلقي والعمل الفني، فإنها كذلك تفتح عالماً جديداً، وتوسع من أفق العالم الذي حولنا وفهمنا لأنفسنا.

وليس العمل الفني منفصل عن العالم الذاتي، رغم أنه يبدأ من المبدع وينتهي بالمتلقي، من خلال وسيط هو النص أو الشكل الفني الثابت، الذي يجعل تلقيه عملية متكررة وممكنة، والحقيقة التي يتضمنها هي كمثيلاتها في الفلسفة والتاريخ حقيقة غير ثابتة، متغيرة بتغاير الأقاليم المعرفية والتاريخية، تبعاً لتغير أفق التلقي وتجارب المتلقي، وعليه فإن النص هو الذي يجعل عملية الفهم ممكنة الحدوث.

وظل اهتمام النظرية التأويلية خلال تطورها منذ شلاير ماخر حتى جادامر منصباً على عبور، أو عدم عبور، الفجوة التاريخية والثقافية التي تفصل ما بين المفسر والنص.

غير أن هذا التركيز من جانب النظرية قد يحمل جرثومة وهنها وذبولها؛ إذ يبدو أن الهرمنيوطيقا فور زوال الفجوة ستفقد مبرر وجودها ولن يعود لها دور. إلا أن الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني يورغين هابرماس ١٩٢٩ شق للهرمينوطيقا طريقاً جديداً سواء من حيث النظرية أو التطبيق.

ويقرر ماهر عبد المحسن حسن أن محاولة جادامر الهرمنيوطيقية الفلسفية هي محاولة ذات طابع خاص تتسم بالقدرة الفائقة على «التجاوزس، إذ أنها تتجاوز الهرمنيوطيقا الكلاسيكية التي لم تستطع التخلص من نموذج المنهج في العلوم الطبيعية بأن تقدم هرمنيوطيقا ضد هذا النموذج من المنهج، وتوسع من أفق التفسير ليشمل كل شيء قابل للفهم والتعقل.

ولا يكون محدوداً في مجال النصوص، كما تتجاوز علم الجمال الحديث الذي أكد على أولوية الصورة الفنية والشكل الجمالي، مقلصاً بذلك من أفق وعينا الجمالي بالفن. هذا بالإضافة إلى تجاوز كل نظريات النقد الأدبي بنقل بؤرة الاهتمام من علاقة «المؤلف/النص» لتكون مسلطة على علاقة «القارئ/النص».

ولا شك أن جادامر في كل هذا إنما كان يسعى إلى إعادة صياغة الفهم السائد لدور الفن والأدب في عالمنا، وبالتالي إعادة تشكيل الوعي الجمالي ليصبح وعياً بشيء نألفه، وليس وعياً مجرداً خالصاً منعزلاً عن عالمنا.

الكتاب: جادامر: مفهوم الوعي الجمالي في الهرمنيوطيقا الفلسفية
تأليف: ماهر عبد المحسن حسن
الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر بيروت
الصفحات: ٢٧١ صفحة
القطع: المتوسط

«مغامرات روبين هود

● ضمن سلسلة الأدب العالمى للناشئين، أصدرت دار كلمات عربية بالقاهرة ترجمة جديدة لكتاب «مغامرات روبين هود» من تأليف هاورد بيل، وترجمة فايقة جرجس حنا.

والكتاب هو عن شخصية إنجليزية من أبرز ما أنتجه الفلكلور الإنجليزى عن فارس خارج عن القانون عاش فى العصور الوسطى، زمن الملك هنرى الثانى حسبما تشير تمهيد الكتاب، التى تقص كيف أصبح روبين هود خارجا عن القانون، حيث تقول مقدمة الكتاب أن روبين هود قتل أحد مساعدى الملك، فى مبارزة بالسهام، وهو ما جعله خارجا عن القانون، وهاربا دائما فى الغابة.

ويروى الكتاب عبر أربع أجزاء، مجموعة من مغامرات « روبين هود» ومجموعته التى تكونت من عدد من الرجال الخارجين عن القانون، والذين اشتهروا بمساعدة الناس، وإسترداد حقوقهم، ويفصل مؤلف الكتاب فى الفصل السادس عشر منه بين شخصية روبين هود، وشخصية الملك ريتشارد قلب الأسد، نجل الملك هنرى الثانى، حيث يرو مؤلف الكتاب أن ريتشارد قلب الأسد، بدأ يبحث عن روبين هود وعصابته ويتنكر من أجل ذلك، ويلتقيه فعلا فى غابة « شيروود»، وينتهى لقاءهم بعفو ريتشارد عن روبين هود، وضمه لحرسه.